

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للشيخ محمد رشيد رضا

بناء الدولة

العوامل النافذة في بناء الدولة : قد يتساءل الباحث الاخلاقي ان يعلم ان اتخذ البواعث اثرًا في تأليف الدولة باعث انافي مزدوج مؤلف من عاملين اثنين جمع الثروة وحب التسلط على الناس. ولكن ماذا يقيد الاستياء وبماذا تنفع الحوقلة ومعظم الاوضاع التي يياهي بها البشر كوضع الزواج الذي شرعناه يتدى حقيراً ذا اجر مظلّم ثم لا يلبث ان ينطبع بطابع الانسانية اللاهلا. ويلوح لنا ان الاستئثار والطمع وانحطوف والشهوة والظلم والانانية وغير ذلك من البواعث الطبيعية كل ذلك كان له الشأن الخطير في تأسيس اوضاعنا الاجتماعية مادية كانت ام معنوية وقد دلت التاريخ على ان عامل جمع الثروة كالكسب الذي يكسبه الغزاة من ماشية ومائة واما وعبيد يؤون الى تقوية الروابط الحكومية وتأييد قوة الفاتحين وضوؤهم بالنظر الى ما تجلبه الدولة من المنافع المادية ناهيك بالحاجة التي يشعرها سواد الناس الى النظام واجراء العدل في توزيع هذه المنافع - وهو وظيفه الحكمة طبعاً

ومن الامثال التي نضربها على ذلك ان الملك عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز اليوم كان في بداءة القرن الحاضر لاجئاً الى الكويت بسيطاً عند اميره الشيخ مبارك بن الصباح لان آل الرشيد كانوا قد احتفوا مواطن آباءه واجداده وانزعوها السلطة منهم وابن السعود هذا هو رجل شجاع ذو عزيمة صادقة وطموح وثاب فوطد النفس على العودة الى نجد واخراج آل الرشيد المغتصبين منه فدير امره في ليل حتى تمكن من اغتيال عامل الرشيد في فراشه وبمساعدة كمين ابقاه خارج التهر تمكن من زسيخ قدمه في البلاد ثم اخذ ملكه في التكاثر والاتساع ال ان امتد الى البحر الاحمر غرباً وسورية والعراق شمالاً ولكن هذا الاتساع ما كان ليم لولا المنافع التي جناها الغزاة الفاتحون من جنوده واعوانه . فزوج هذه المنافع الاساسية بدعوة روية جذابة كاللعوة ال التنزيه ومحاربة الشرك ولا سيما الاستيلاء على اموال المشركين جزاء لهم كل ذلك ألف من هجم النجديين خصوصاً ممن يدعون « غطفاناً » جيشاً نجياً متحسناً اكتسح هذه الاصقاع المترامية الاطراف ولم يتورع ان يطبق على الكثير

من مكائنها فاعدة القتل العام — ولو على ابواب مكة — باسم التوحيد وانتطير من الشرك
 والقارىء يرى من هذا المثال الخفوس كيف ان الباعث الاول على تأسيس هذه المملكة الثمرامية
 الاطراف هو باعث طبيعي يرتكز على شعور بالتأمر متأصل في العرب ، فلما ذر غيبه التثاقوف به
 فلغلاً وسهراً من دعرة اخلاقية خيالية كمالية صنع طعمه وصار لذيقاً حتى في اقواء الانبياء
 المتأهين ناهيك بالشرحين الشرمين . ولا حظت في المدد التي اقمها في الصحراء ان كل دعوة
 كائنة ما كانت متى وضعت عليها انقربال الروحانية المتقبلة وكان من ورائها نفع مادي تلاقى
 رواجاً عظيماً ولا سيما عند القبائل التي تشكو القلة وتعاين المحل . ولا تحطء اذا نحن قلنا
 ان المؤمنين يمثل هذه الدعوة عن اخلاص ضاعر لا تمازجه النافع المادية هم الاقلية . واما
 سواد الناس فهم لا يدركون الكمال عادة الا اذا كان مصاحاً طيبة بالمنافع فلا يصلون ذ
 مثلاً الا اذا اعتقدوا ان تحت السحادة في الدنيا دينار او داجاوي الآخرة نصحراً حافلاً بالمحور الدين
 ويمكننا ان نضع القاعدة العامة الآتية عن الاقوام التي لا تزال على الطريقة النظرية العمياء
 في نبوها — يعني انها لم تدخل بعد في طور الارتقاء التام الذي يكون التحول الاجتماعي
 فيه غاية يدركها الناس بمشورهم — وهذه القاعدة هي ان التمايل الذي يذرعى الباعث الثاني
 الاصلي ليجعل طعمه لذيذاً هو مقياس ارتقاء الشعب الذي يذره . بل ان هذه القاعدة تطبق
 على اي شعب كان ما دام سواده كوة تتقاذفها موجال الدعوات المزوقة لتتلقفها ايدي الملاعين
 تأثير الدين في تأسيس الدولة : ومن العوامل المتحلية في تأسيس كيان الدولة العامل الديني
 منذ العصر القبلي الاول الى اليوم فقد ايد الدين الاستقرار السياسي وساعد على حفظ
 النظام بما اتاه من تعصيد الشيخ الزعيم وتثبيت التمايح العظيم وذلك للمصلحة التي توخاها من
 مقامها الرنيح ولا يزال الملوك والقواد الى يومنا هذا حتى في ارق البلدان الغربية مظهر عطف
 الاكليروس ومجلى تأييده . وزاد في سلطة الشيوخ والتمايحين في العصر السجبة ان الكهنة
 كانوا يجمعون الى الخوف من الآلهة والفرع من الاصنام والارواح الخوف منهم . وقد مثل
 الشيخ الزعيم والتمايح العظيم سلطة هذه المهورات في القرون الاولى كما مثلها في القرون الوسطى
 فلم يكن الفرق كبيراً بين فرعون الرب الاعلى وشارلمان فضل الله على الارض . وبالانتقال من الوضع القبلي
 البسيط الى الوضع الدولي المعتد انتقل الدين من شكله المحلي الاحلي الى شكله القومي العام كما حدث
 عند الاسرائيليين اذ تغلب دين احد الامباط على اديان الامباط الاخرى فآكتسحها ومن ثم صار
 الدين اليهودي القومي ، وحينئذ انتقل (يهوه) من بقعة المحدودة الى مقامه الشامل — من
 صم سبطي محلي لا يختلف كثيراً عن الالة والعزى ومناة الى اله قدير يحكم على المشارق والمغارب
 اشراك الآخرين في الحكم : وغني عن البيان ان اتساع القبيلة على الطريقة التي ذكرناها ادى الى
 رغبة الناس في الحصول على النظام والتمتع بالحماية تحقيقاً للمصلحة العامة لكن القيام بجميع الوظائف

التي يقتضيه، هذا التحول يتعذر على أي فرد من الأفراد ولو كان من الجبارة فهو أصراً (الشيخ النوري بن شداد) أي إنسان المستدم أو أصراً المرتزقة من أعوانه ممن يتدعون بواله مبشرة على أن يبق هذا الأمر جميعاً في قبضة يده لا يختار النظام وتطالب عليه الناس في الداخل والخارج. لاجرم أنه مضطر إلى إشراك غيره في الحكم من انتداب من يساعده في التشريع والتقصاء والتنفيذ لأن سياسة جمهور كبير من الناس والإشراف على أعماله ومعاملة أفرادها بالعدل هي كلها أمور تدل على التعقد الذي طرأ مما لا يقوى الشيخ الزعيم على معالجته كما يصلح الوالد الشؤون العائلية فلا بد والحالة هذه من اختيار المتدينين الصالحين للأعمال وهذا الانتداب يحدث تنوعاً مستمراً في الوظائف الحكومية وهو تنوع يدل على طريقة تأليف الدولة

ومن أكبر البلايا التي أصيب بها الحسين بن علي ملك الحجاز وزعيم الثورة العربية طمعة في أن يبقى «شيخاً زعيماً في القبيلة» يتناول الأشياء كبيرةا وصغيرةا بقبضة يده مما كان سبباً عظيماً في إهيار ملكه. وعسى أن يتخذ الآخرون من ملوك العرب ممن يجرون على طريقته الطرمة العتيقة هذه اما بسائق النفقة أو بتعريض المرتزقة من حولهم. وفي وسعنا وضع التفاعلة الآتية وهي أن كل قطر متسع منسحب يسبق به الولع بالمحافظة إلى درجة أنه يحاول النقاء مقتصرأ على سلطة الشيخ الزعيم، أو على أسرة التي استلمها بمفرده من غير اعتبار للتطورى ولا إشراك غيره معاً في الأمر هو قفـر رجعي يطلب العودة إلى الأوضاع القبلية الاجتماعية البائدة النظرية النظرية في تعيين الدولة: كما تولدت الأسرة من سمي الرجل والمرأة لأن يعيشا معاً بالاقفة والتعاون ويستولدا الأولاد ومحضات ذلك الدولة نشأت من سعي الناس لأن يعيشوا معاً متكاتفين متآلفين تحقيقاً لغايات مشتركة يطلبونها فلم تكن الدولة والحالة هذه بداية المجتمع الإنساني ولا انغاية الاختيارية التي نبتها الإنسان بمحض اختياره وبعد نظره بل هي إحدى الوسائل المتأخرة التي توصل بها بقطرته وبطبيعته للحصول على الهدى الاجتماعي وذلك بما استجد من نظام معين خضع له وهذا النظام هو النظام السياسي فالدولة إذن هي فرع من فروع تلك الشجرة الاجتماعية الباسقة التي انبثت فروعاً أخرى من أوضاع خطيرة مثل وضع الزواج والاقتصاد والدين. وكما أن هذه الأوضاع متصلة في المجتمع ومشتبكة به اشتباك اللدنية بالنعمة كذلك الدولة هي ظاهرة من ظواهره الجوهرية. ولا يظن أحد أن تعيين الزمن الذي بدأت فيه الجماهير بالتخضوع للإدارة السياسية والإشراف «الحكومي» العام هو أهون من تعيين الزمن الذي اتصل فيه الرجل بالمرأة لتأسيس الأسرة بل كلاهما حدث مع المجتمع وملازم له. وليست حاجة المجتمع إلى التعاون والنظام والحماية العامة دون حاجته إلى استيلاء الأولاد والأولاد لما اختلفت الجمعية البشرية كثيراً عن قطع من الجوامير يرود المستنقعات في الهنت أو سرب من القرود بموجب الغابات في أفريقيا